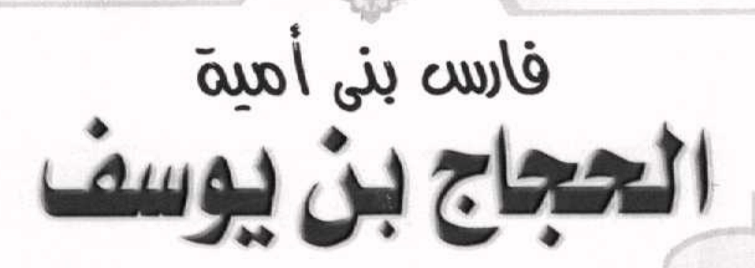


فارس بنى أمية

الحجاج بن يوسف

تأليف : نشأت المصري

رسوم : كمال البرشومي

إخراج فنى : حسين الجدولية

الناشر

دار الهدى للكتاب

ش الجمهورية - بيلا - كفر الشيخ - ج.م.ع

تليفون : ٠٤٧/٣٦٠٤٦٠١ - ٠٤٧/٣٦٠٩٦٠١

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٥٥٦١

الترقيم الدولى : I.S.B.N : 977-6150-16-0

الطبعة الأولى : مـــايو / ٢٠٠٧م - ربيع ثاني ١٤٢٨هـ

جميع حقوق الطبع محفوظة

شيء من طفولته

كَانَ مَشهَدًا جَميلاً رَائعًا، يتجدَّدُ كُلَّ عَامٍ في مثلِ هَذَا الْوَقت، إنَّهُ مشهدُ البسَاتين الخضراء، وقدْ تدلَّت عَناقيدُ العنب من بَينَ الأغصَان تُنادي أصْحَابَها ليتمتَّعُوا بمذاقها.. هذَا هُوَ الحَالُ في مَدينة الطَّائف.

وقَبيلةُ «ثَقيف» هي الأُخرَى في حَالٍ منَ النَّشاط والسَّعَادة، يَمرَحُونَ ويُغنُّونَ وهُمْ يَجنُونَ العَناقيدَ النَّاضجَة.

وَفي القَبيلَة كَانَ هُناكَ رَجلٌ طَيِّبٌ وَادعٌ هُوَ يُوسُفُ بنُ الحَكمْ، رزَقَهُ اللهُ بولَدٍ سَمَّوْه«كُليبًا»، ولقَّبَتْهُ أُمُّهُ بــ «الحجَّاج» عَلَى أمَلِ أنْ يَكُونَ تَقيًّا كَثيرَ الحج، ومُنذُ طُفولته كَانَ الحَجَّاجُ عَنيدًا شَرسًا، وَتوقَّعَ لَهُ النَّاسُ مُستقبلاً غَيرَ مَألُوف.

كَانَ وَالدُهُ فَقيهًا عَالمًا، وَأُمُّهُ ذَكيَّةً جَريئَة.

وَفي صغَره حَفظُ الحجَّاجُ القُرآنَ الكَريمَ، فَكَانَ فَصيحَ اللسَان، وَشَارَكَ أبَاهُ فَي تَعليمِ الأطفَال وَالصِّبيان، وكَانَ حَادًا في لعبه مَعَ الأطفَال.

وَفي شَبابه اتَّهمَهُ البعْضُ بأنَّ أصلَهُ يَرتَدُّ إلى بَقَايَا ثَمُودَ الَّذينَ كَذَّبُوا صَالحَ وَعقرُوا (ذبحوا) نَاقَةَ الله فأهلَكَهُم.

ودَافَعَ الحَجَّاجُ عَن نَفسه منْ عَلَى الْمنبَر قَائلاً:

يَزعُمُونَ (يدَّعون) أنني منْ بقَايَا ثَمود، فَقَدْ كذَّبهُمُ اللهُ بقوله:

﴿ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ النجم آية ٥١

يُريدُ أنْ يَقولَ لَهم إنَّ قومَ ثَمودَ لَمْ يَتبَقَّ منهُم أحَد.



العالم الذي يحيط بـه

نَشأَ الحجَّاجُ في دَولَة بَني أُميَّة، وقَدْ قامَتْ هذه الدَّولةُ عَلَى الْخَديعَة، وانتشَرتْ فيهَا الفِتَنُ والمؤامرات، وحَرَص بنو أُميَّةَ على أنْ تَستَمِرَّ الخِلاَفة فيهم .

وَفي عَام ٦٤هـ أَصبحَ مَروانُ بنُ الحَكَم خَليفَةً للمُسلمين، وكَانتْ دِمَشق آنذاكَ عَاصِمَةَ الخِلافة.. عَاصِمَةَ بلادِ الإسْلاَم.

وتَمَتَّعَ الْخَليفةُ مروَانُ بنُ الحَكمِ بشَخصيَّة قويَّة وحِكْمَة ودَهَاء، وواجَهَ مُنْذُ البِدَايَة صِراعَات شَديدَة.. فَقَدْ رَأى عَبْدُ الله بنُ الزُّبَيرِ وأَعْوَانُهُ أنَّ ابنَ الزُّبيرِ هُوَ الأحقُّ بالخلافَة مِن مَّروَان.

وكَانَ عَبدُ الله بنُ الزَّبَيرِ يُقيمُ في الحِجَاز، وَأيَّدَهُ الكثيرونَ في مِصْرَ وَالعِرَاق وَالحجَاز، فَتحرَّكتْ جُيُوشُ مَروانَ إلى مصرَ، وهزَمت الثَّائرينَ عَلَيه، كَما بَعَثَ مَرَوانُ ببعْضٍ منْ جَيشه إلى الْعِرَاق وَالحجَاز، وَاختَارَ للقُوَّات الْمُتَّجهَة إلى الحِجَازِ أشَدَّ قُوَّاده، وكَانَ الحجَّاجُ أحَدَ جُنود تلكَ القُوَّات.. وَانتهَت الْمَعَارِكُ بانتصَارِ جُنود عَبدِ الله وفرَارِ قُوَّات مروَان، وَنَجَا القَليلُ منْهُم، ومن بَينهم الحجَّاجُ، بَلْ حَاوَلَ جَيشُ عَبدِ الله الاستيلاءَ عَلَى دمشق وفَشلَت المُحاولَة، وظَلَّت العرَاقُ وَالحجَازُ منطقتَا قلق.

وَنجَحَ مَروانُ في أنْ يَجعَلَ ابنَهُ عَبدُ المَلك وَلِيًّا للعَهد.

وَبَعدَ شُهورٍ تُوُفِّيَ الخَليفَةُ مروَان، وتولَّى ابنه عَبدِ الْمَلكِ الْحُكمَ مِن بَعده وذلكَ عَام ٦٥ هـ.

وَكَانَ عَبدُ المَلك أديبًا، صَاحبَ عَقْلٍ وَفكرٍ وَحزمٍ وَفقْه، دَرَسَ بعنَايَةٍ مَنْ يُحيطُونَ به، وَرَأى أنَّ الحجَّاجَ أفضَلُ هؤلاء لمُوَاجَهة المَخاطرِ التي تُهدّدُ دَولته.

بين الحجاج وعبد الملك

عندَمَا تولَّى عَبدُ المَلك الخلافة كَانَ الحجَّاجُ بن يُوسُفَ من قيَادَات الشُّرْطَة، فتمَّ اختيَاره حَاكمًا عَلَى بلدَة صَغيرَة، فَلَمْ يَقبَلْ بذَلكَ لضَآلَة المَنصب، وَالتقَى الخَليفَةَ الذي لَمَسَ فيه الصِّفَات الَّتي يَبحَثُ عَنهَا لمُقَاوَمة أنصَار عَبد الله.

تعَقَّدَت الصِّرَاعَاتُ وَالثَّورَاتُ في الْعرَاق، وَقرَّرَ عَبدُ الملك غَزْوَ الْعرَاق، لَكنْ كَيفَ وَجُنُودُ عَبْد الْمَلك في فَوضَي واضطِّرَاب؟

أَشَارَ الْوَزير «رُوح» علَى الخَليفَة أنْ يَستعينَ بالحجَّاجِ بن يُوسُفَ، فتوَلَّى الحجَّاجُ شئونَ الْجنُود، فَأَخذَهُم بالحَزْم وَالشّدَّة، وَبدأ بجَلد بَعض أعوَان الوَزير «روح»، فَاشتَكَى رُوحُ للْخليفَة فَردَّ الحجَّاجُ قَائلاً:

أنَا مَا فَعلْتُ يَا أميرَ المُؤمنين.

فَقَال: وَمَن فَعَل؟

قَالَ الحجَّاجُ: أنتَ فَعلت؛ إنَّمَا يَدي يدُك، وسَوطي سَوطُك، وَمَا عَلَى أميرِ المُؤمنينَ أنْ يكسَرَني فيمَا قدَّمَني لَه.. فوَافقَهُ الخَليفَةُ عَلَى رأيه.

وَكَانت الخُطوَةُ التَّاليَة هيَ الهُجُومِ عَلَى بَغدَاد، فَجَعلَ الخَليفةُ الحجَّاجَ عَلَى رَأسِ الجَيش.

وَكَانَت الْعِرَاق فِي قَبْضَة مُصعَب بن الزُّبَير، فَاستغَلَّ الحجَّاجُ قيامَ بعضِ الحُرُوب بَينَ أهْلِ العِرَاق حتَّى أجهَدَهُم الحُرب، ثُمَّ هَاجَمَهُم حَتَّى تَفَرَّقُوا، وَقُتِلَ مَلِكُهُم مُصعَبُ بنُ الزُّبير، وعَادَت العِرَاقُ إلى سَيطَرَة الخَلِيفَة عَبد المْلك، وبَقِيَت الْحجَازُ فِي يَد عَبد الله.

وَعَرَضَ الحجَّاجُ عَلَى الخَلِيفَة عَبدِ الْمَلكِ أنْ يَغزُوَ الحِجَاز، وَحَكَى لَهُ حُلْمًا يُشَجِّعُهُ عَلَى الغَزْو، فَوَافَقَ الخَلِيفَة.

الطريق إلى الحجاز

لَمْ يَكنْ غَزوُ الحجَاز سَهلاً، فَأهْلُ الْحجَاز يُؤيِّدُون عَبْدَ الله، وَلاَ يَنسَونَ أنَّ آل أُمَيَّة اغتَصَبُوا الحُكمَ، وأنَّ أيديهم مُلوَّثَةٌ بدماءِ الحُسَين رضي الله عنه.

وَلَجأَ الحجَّاجُ إلى المكرِ وَالْمُغامَرَة.. وكَانَ عُمرُهُ آنذاكَ إحدَى وثَلاثين سَنةً فَقَط.

سَارَ الحجَّاجُ فِي أَلْفَين مِنَ الجُند إلى مَكَّةَ، وَجَعلَ مَركَزَ حَرَكَته سُفُوحَ الطَّائف؛ فَهِيَ بَلَدُه، ويُمكِنُ أنْ يُسَاندُوه، وَمِنَ الطَّائف هَاجَمتْ بَعضُ قُوَّات الحجَّاجِ قُوَّاتِ عَبد الله هجمَاتٍ مُستمرَّةً فِيمَا يُشبهُ حَربَ العِصَابَات، فَأجهَدَتْ هَذه الهجَمَات قُوَّات عَبْد الله.

وَحَانَ وَقْتُ الهُجُومِ الْكَبيرِ بَعدَ عدَّة أشهُر، فَأمَدَّهُ الخَليفَةُ بخمسَةِ آلاَف مُقاتل، فحَاصَرَ الحجَّاجُ جَيشَ عَبد الله أكثَر مِنْ ثَمَانِيَة أشْهُرٍ إلى انْتهَاءِ مَوسِمِ الحجِ، وَكَانَ عَبدُ الله مُحتَمِيًا بالْحَرَمِ هُوَ وَقُوَّاته.. ولكنَّ العَجيبَ وَالمؤسِفَ أنَّ الحَجَّاجَ وجَّه قَذَائفَ المنجنيق إلى الحَرَمِ وَحَوَائط الْكَعْبَة!!



كَانَ مَشهدًا مُفزعًا مؤلمًا أنْ يَعتدي مُسْلمٌ – مَهمَا كَانت الأسْبَاب – عَلَى أشرَفِ مَوْقِعٍ عَلَى وَجْهِ الأرْض، فيَالَها من قَسْوَة قَلْب! ويَالَها مِن وَحشيَّة مُرَوِّعة .

وَحَدَثَ أن رَّعَدَت السَّمَاءُ وَبَرقَتْ أثناءَ القَذف، وبَدأ جُنُود الْحجَّاجِ يَتراجَعُونَ خَوْفًا منْ غَضَبِ الله عَليهم.. لَكنَّ الحجَّاجَ لاَ يَعرفُ التَّراجُع، غَلَبَ الْجُنُودَ الْخَوْفُ منْ غَضَبِ الحجَّاجِ عَليهم وَعقَابه لَهُمْ، وَلَمْ يَخْشَوا الله وَعقَابَه، فَوَاصَلُوا الضَّرْب.

وَتكرَّرت الصَّوَاعقُ الَّتي أَهلَكَتْ عَددًا منْ جُنُودِ الحَجَّاجِ–جُنودُ الشَّام– وَلَمْ يَتوَقَّف الضَّربُ حَتَّى استَسلَمَ أهلُ مَكَّةَ، وَهَرَبَ أعوَانُ عَبدِ الله بنِ الزُّبيرِ مِنْ ضَرَبَاتِ المَنجَنيق، حَتَّى حَمزَة وَخُبَيب ابني عَبدِ الله لَم يَصمُدَا.

يا أماه

تُرى؟ مَاذَا يَفعَلُ عَبدُ الله وَقَدْ أصبَحَ وَحدَه؟ لَقَدْ وَعَدَهُ الحَجَّاجُ بالأمَان إذَا استَسْلَم، لَكنَّ الاستسلاَمَ خزيٌ، وَهُوَ يُحَارِبُ منْ أجْلِ الْحَقِّ، فَهَلْ يُسَلِّمُ نَفسَهُ للبَاطلِ ليَنجُوَ بحَياته بَعْدَ أنْ خَذَلَهُ النَّاسُ وَابتعَدُوا عَنه؟

عَرَضَ عَبدُ الله الأمرَ عَلَى أمِّه السَّيِّدَة الْعَظيمَة أسْمَاءَ بنتَ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق، فقَالَتْ: أنتَ أعلَمُ بنَفسك، وإنْ قُلتَ: كُنتُ عَلَى حَقٍّ فَلمَّا وَهَنَ أصْحَابي ضَعُفت، فَهَذَا لَيْسَ فعلَ الأحرَارِ وَلاَ أهلَ الدِّين، وَكَمْ خُلُودُكَ في الدُّنيَا؟ القَتلُ أكرَمُ وأحسَن.

فقَالَ لَهَا: يَا أُمَّاه، أخَافُ إنْ قَتَلُوني أنْ يُمَثِّلُوا بي وَيَصلبُوني.



قَالَت أسْماءُ الأم: يَا بُني، إنَّ الشَّاةَ لاَ تتَأَلَّمُ بِالسَّلْخِ بَعد الذَّبْحِ، فَاسْتَعِن بِالله وامض، عِندَئذٍ نَهضَ ابنُ الزُّبيرِ، وَقَبَّلَ رَأسَ أُمِّه أسمَاءَ وقَالَ في نَبرَةٍ قَاطِعَة:

-إنِّي مَقْتُولٌ من يومِي هَذَا، فَلاَ يَشتَدُّ حُزْنُك، وَسَلِّمي الأَمرَ لله.

فَدَعتْ لَهُ أُمُّهُ، وَوَدَّعهَا لِيُوَاجهَ مَصيرَهُ المَحتُوم..

رَجُلٌ وَاحِدٌ في مُوَاجَهَةِ جَيْشٍ كَامِل!!

وَقَاتَلَ قتالَ الأَبطالِ حَتى قُتل، وَتَكْتَمِلُ وَحشِيَّةُ الحجَّاجِ بتعْلِيقِ جُثَّة عَبدِ الله زَمَنًا في أحَدِ المَيَادينِ قَبلَ دَفنِهَا.

صَارَ الحجَّاجُ وَاليًا عَلَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَة، وَشَهِدَ أَهْلُ الْمَدِينَة أوْقَاتًا أليمَةً مِنَ الظُّلمِ وَالْقَهْرِ لِمُدَّةِ عَامَين.. وَلاَ تَتَوقَّفُ أَطمَاعُ الحجَّاجِ، فَيَتطَلَّعُ إلى حُكمِ الْعِرَاق، وَكَانَ لَهُ مَا أرَاد.

الحجاج في العراق

عندَمَا تَولَّى الحَجَّاجُ أمرَ العِرَاقِ، اتَّجَهَ إلَى الْكُوفَة، وَوَقَفَ عَلَى الْمنبَرِ وَهُوَ مُلَثَّم وَسَيفُهُ فِي يَدِه، وَظلَّ سَاعَةً لاَ يَتكَلَّمُ، فظَنَّهُ النَّاسُ أخرَسًا، لَقَدْ أرَادَ أنْ يُثِيرَ انتبَاهَهُم وَتَرْكِيزَهُم وَخَوفَهُم.. ثُمَّ خَطبَ فِيهِم يَفْتَخِرُ بِصَلاَبَتِه وَقَسوَتِه، وَيُحذِّرُهُم وَيُهدِّدُهُم بِكَلِمَاتٍ مُهِينَة، وَيَصِفُهُم بِحُبِّ الشِّقَاقِ وَالنِّفَاق.

وَممَّا جَاءَ فِي خُطبَتِه:

أنَا ابنُ جَلاَ وَطَـــــلاَّعُ الثَّنَايَا

متَى أَضَعُ العِمَامَةَ تَعرِفُـــونِي



تجمّدَتْ يَدُ النّائب منْ هَيبَة الشّيخ، وَسَقَطَ السّيفُ منها، وَظَلَّ يرتَعدُ وَيرتَعش، وَسألَ الشّيخَ أنْ يدعُوَ له، ثُمّ انصرَفَ خائفًا آسفًا.

وَطَلبَ الْمَلكُ منَ الشّيخ أنْ يتراجعَ عَن هَذَا الْحُكْم باعْتبار أنَّ هذَا الْمَوضوعَ يَخُصُّ الْمَلكُ وَحدَه، فَأصَرَّ الشّيخُ عَلى موْقفه.

وَفي صمت، جمعَ الشّيخُ أمتعَته، وأركبَ أهلَه حميرًا، وَسارَ خَلْفَهُم على قدمَيه يُريدُ مُغادرةَ مصر، وَمَا أن علمَ النّاسُ حتى لاحقُوهُ في الطريق فرَفَضَ الرُّجوعَ، وشعَرَ المَلكُ بالقَلَق، فَلَحق بالشّيخ، ووَعَدَهُ بتنفيذ مَا قَضَى به، واشْترى الأُميرَ المَماليكَ من مَاله في مزَاد، ثُمَّ أعتقَهُم ليَكُونُوا أحْرَارًا، ودَخَلَت الأموالُ خزَائنَ الدولَة.

السلطان القط

طَلعَ الشيخُ إلى القَلعَة لُمقابلة السُّلطَان في يَومِ عيد، وكَانَ العَسكرُ مُصطَفّين بينَ يديّ السّلطان- وهُو جَالسٌ في زينته الكَاملَة - وَأخذَت الأُمرَاء تُقَبِّلُ الأرضَ بينَ يديّ السُّلطان.

التَفتَ الشّيخُ إلى السُّلطان ونَادَاه:

يَا أيوب، مَا حُجّتُك عندَ الله إذَا قالَ لك: ألَمْ أُعطكَ مُلْكَ مصرَ ثُمَّ تَبيعُ الْخُمُور؟

قَالَ السُّلطان: هَلْ جَرَى هَذَا؟

قَالَ الشّيخُ: نعَمْ، حَانَةُ كَذَا تَبيعُ الخُمورَ وغَيرَهَا من المُنكَرَات، وأنتَ تتقلّبُ في نعمَة هَذه المَلكَة. يَا سَيّدي، قَالَ السُّلطان : هَذَا أنَا مَا عَملْتُه، هذَا منْ زَمان أبي.

قالَ الشيخُ: أأنتَ منَ الّذينَ يقولون «إنّا وَجدْنا آباءَنا على تلكَ المِلّة وَالدّين»؟

هُنا اضطرَّ السّلطانُ إلى الاستجَابة لمطَالب الشّيخ،وأصدَرَ أمرًا بإغلاَق تلْكَ الحانة.



عَلَى الْكُوفَة، فَعَزَلَ الحجَّاجُ القَائدَ عَبدُ الرَّحمنِ، وَوَلَّى غيرَه، وَخاضَ بنفسه الْحَربَ حَتَّى فَرَّ شبيبُ بعدَ أنْ لقِيَ هزيمةً سَاحقَة.

أمَّا عَبْدُ الرَّحمنِ بنُ الأشعَث فَقَد امْتلأَ حقْدًا عَلَى الحجَّاج، وَرَغم سُوءِ العلاَقَة بينهُمَا، أسندَ إليه غزْوَ مَلك كَابُول الذي ثَارَ عَلَى الدَّولَة، وبَعدَ معاركَ انقلَبَ عبدُ الرَّحمنِ عَلَى الحجَّاجِ، وَتصَالحَ معَ مَلكِ كَابُول، وَثَارتْ حُرُوبٌ شَرِسَةٌ وَمُؤَامَراتٌ انتهَتْ بموتِ عَبدِ الرَّحمنِ، ودَخَلَ الحجَّاجُ الكوفة مُنتَصرًا.

وَممَّا يُوضِّحُ شَخصيَّته القَاسيَة الطَّاغيَة أنَّهُ قَتلَ الْكَثيرينَ منْ أعوانِ عَبدِ الرَّحمنِ في الْكُوفَة بعدَ أنْ أعْطَاهُم الأمَانَ وَاستَسلَمُوا لَه.

والآن.. كَيفَ بَعدَ هذهِ المَجازرِ يُبقِي الخَليفَةُ عَلَى الطَّاغيَة الحجَّاجِ في مَواقِعِ الْقيَادَة وَالْحُكم؟

أَليسَ سَمَاحُ الخَليفَة لَهُ بالاسْتمرَارِ في حُكمه يجْعلُهُ مُشاركًا في هذه الأخطار والجرائم ، بَلْ إنَّ الخَليفَةَ وَلاَّهُ -بالإضَافَة إلى الْعرَاق- فَارسَ وكَرْمَانَ وسَجستَان وخُراسَان، ثُمَّ عُمَانَ وَاليمَنَ وَبلادًا أُخرَى.

لَكن مَرَّةً أُخرَى.. منِ المَسئُولِ عَنْ أنْهَارِ الدِّمَاءِ الَّتي سَالَتْ في دُولٍ كَثيرَة عَلَى يَد الحَجَّاج؟

عهد جديد

جَاءَ عَامُ ٨٦ هـــ فَمَاتَ عَبدُ المَلك، وَتولَّى الْخلاَفَةَ ابْنُهُ الْوَليد، وَاستمرَّتْ مَنـــزِلَةُ الحجَّاجِ لَدَى الْوَليدِ كمَا كَانَتْ لَدَى أَبيه، بَلْ وَأَكثَرَ منْ ذَلك.

وَبوشَايَة مِنَ الحَجَّاجِ عَزَلَ الْوَلِيدُ ابن عَمِّهُ عُمَرَ بن عَبْدِ الْعَزِيزِ التَّقِيِّ الْعَادِلِ عَنْ وِلاَيَةِ الْمَدِينَةِ، وَقَرَّرَ الْوَلِيدُ أنْ يَغْزُوَ بِلاَدًا أُخرَى، وَكَلَّفَ الْحجَّاجُ بِتَحقيقِ هَذَا الْهَدَفِ الْكَبِيرِ.

وَتنفيذًا لأَوَامِرِ الحجَّاجِ فَتَحَ مُحمَّدُ بنُ الْقَاسِمِ بِلاَدَ السِّنْد بِالْحَرْبِ وَبالصُّلْحِ حَتَّى تمَّ قَتْلُ «داهرا» مَلكُ السِّندِ، وَانتَشرَ الإِسْلاَمُ فِيهَا، وَكَثُرَت الْمَغَانِم.

وَعَلَى محْورٍ آخر تَرَكَ الْقَائِدُ الْعَظِيمُ «قُتيبَةُ بنُ مُسْلِم» وَالِي خُرَاسَانَ بِجنُودِه إلى بِلاَدِ التُّرْكِ وَبُخَارَى وَخَوَارِزْم وَسَمَرْقَنْدْ، فَفَتَحَهَا، وَاسْتَعَدَّ لِغَزْوِ الصِّين، وَسَادَ بِلاَدَ الْمُسلمينَ بالإِسْلاَمُ اسْتِقْرَارٌ وهُدُوءٌ غَابُوا طويلاً.

الوجه الآخر للحجاج

يَقُولُ الْعَديدُ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ أنَّ عُنفَ الحجَّاجِ هُوَ الَّذِي أنْهَى الْفِتَنَ وَالْمُؤَامَرات وَهيَّأَ الظُّرُوفَ لإِنجَازِ الْفُتُوحَاتِ الْكُبْرَى، وَفَتْحِ بِلاُدِ الشَّرْق.

لَكِنَّ مَا ذَنبُ آلافِ الضَّحَايَا الَّذِينَ قُتِلُوا وَعُذِّبُوا ظُلْمًا؟

أَلَيْسَ الْعَدْلُ هُوَ الْبَدِيلُ الْجَمِيلُ لِلْقَهْرِ؟

إنَّ مَا يَصنَعُهُ الاسْتِبْدَادُ مِن مَصَالِحِ يُمكِنُ أنْ تَصنَعَهُ الْحُرِّيَةِ بِخَسَائِرِ أقَل.

لَكِنْ هَلْ يَتخَلَّى الْحَاكِمُ عَنِ الْحُكْمِ بِدُونَ حُرُوبٍ إِذَا رَأَتِ الشُّعُوبُ ذَلك؟

عَلَى أيَّة حَال.. نَجحَ الحجَّاجُ فِي حِمَايَةِ الْخَلِيفَةِ مِنَ الثَّوَرَاتِ وَالثَّائرِين.

وَمِنْ أَفْعَالِه الْمُضيئَة.. تَعْمِيرُ وَإِصْلاَحِ الْكَعْبَة، فَقَد تَعَرَّضَت الْكَعْبَةُ بَعْدَ الإِسْلاَمِ لِلرَّمْيِ بِالْمَنْجَنِيقِ مرَّتين: الأُولَى فِي عَهْدِ يَزِيدِ بنِ مُعَاوِيَة، وَالثَّانِيَة عَلَى يَدِ الحجَّاجِ فِي عَهْدِ الخَلِيفَةِ عَبدِ المَلك.

وَمِنْ أَفْعَاله الْمُضيئة أيضًا، بناءُ مَدينة جَديدة هيَ مَدينةُ «وَاسط» في الْعِرَاق لتكونَ مَقرًّا لَه.. وكَذبَ عَلَى الْخَليفَة وَادَّعَى أنَّ بَعْضَ تكَاليف إنشَاء الْمَدينة أُنْفقَتْ عَلَى الحُرُوبْ السَّابقَة.

ومنْ أَفْعَاله تلك إعجَامُ الْمُصحَف؛ فَقَدْ كَانَتْ حُرُوفُ الْمُصحَف تُكتَبُ بغَير نُقَط بمَا يُسبِّبُ أخطَاءً في الْقرَاءَة

كَمَا أمَرَ بإحْلاَل اللُّغَة الْعَرَبيَّة مَحَلَّ اللُّغَة الْفَارسيَّة في الْعرَاق، ووَضَعَ أيْضًا النُّظُمَ الْمُحْكَمَة للْخرَاج (الضرائب) وتَنميَة الزِّرَاعَة.

وكَذَلكَ عُرفَ بالكَرَمْ؛ حَيثُ يَمدُّ الموائدَ الَّتي لاَ تَنْقَطعُ لإطعَام آلاَف الجَائعين، وكَانَ مُحبًّا للأدَب وَالشّعْر، يُكَافئ صَاحبَ الشّعْر الْجَميل، وَقَدْ مَدَحَهُ من الشُّعَراء جَريرُ وَالْفرزْدَق.

وَلكُلِّ إنسَان لَحظَاتُ صَفَاء يُحَاسبُ فيهَا نَفْسَهُ، ويَتَأمَّلُ الْكَوْنَ وَالْحَيَاة، وَفي إحْدَى هَذه اللَّحظَات قَالَ الْحجَّاجُ تلكَ الكَلمَات:

أمَّا بَعد/ فَإنَّ الله كَتَبَ عَلَى الدُّنيَا الْفَنَاء، وعَلَى الآخرَة الْبَقَاء، فَاقْهَرُوا طُولَ الأَمَل بقصَر الأَجَل.

وَرَغْمَ كُلَّ أفعَاله الْمُضيئة الَّتي ذَكَرْنَاهَا إلاَّ أنَّها تَتضَاءَلُ كَثيرًا أمَامَ هَذه الْحَيَاة الَّتي عَاشَهَا، وَأَقَامَ فيهَا حُكْمَهُ عَلَى الغلْظَة وَالاستهَانَة بدمَاء النَّاس، وَهَذه تَصَرُّفَاتٌ تَرفضُهَا الفطرَةُ وَالأخْلاقُ وَالدِّين.

وَانطَوَتْ صَفْحَةُ حَيَاة الْحَجَّاج عَام ٩٥هـ، فَمَاتَ بـ«وَاسط» في الرَّابعَة وَالْخَمْسينَ منَ الْعُمر بَعْدَ آلام عَظيمَة عَانَاهَا مَعَ مَرض السَّرطَان وَقَدْ تَعذَّبَ في مَرَضه عَذَابًا شَديدًا، فَأَرْسَلَ إلَى الإمَام الحَسَن البَصْري هَذه الْكَلمَات:

يَا حَسَن، لاَ أسأَلُكَ أنْ تَسأَلَ الله أنْ يُفرِّجَ عَنِّي، وَلَكني أسأَلُكَ أنْ يُعَجّلَ قَبْضَ رُوحي وَلاَ يُطيلَ عَذَابي.